قلم ليس برسم البيع

أ. يحيى القويضي
Yog1972@maktoob.com

ما أروع أن يكون الأديب ضميرا لأمته؛ وما أعظم أن يكون قلمه ليس برسم البيع ... وما أوجع ذلك أيضا ؛ سولجينتسين الروائي السوفييتي / الروسي كان رجلا من هذا الطراز ، و حتى وفاته – قبل شهرين – لم ينحاز سوى للحق و العدالة ، ولم يأبه لعتو مناوئيه و إغرائهم ؛ لم يرقص أو يطبّل ، ولم يكن مهرجا في أيما حفلة ؛ يا الله : ما أرقى أن يحترم القلم نفسه .

ولد سولجينتسين – في القوقاز – يتيما – سنة 1918 م ،وعاش صباه في فقر مدقع ، ومع ذلك اهتمت أمه بتدريسه ، حتى حصل على إجازة الفيزياء و الرياضيات من جامعة روستوف ، ثم درس – منتسبا – الأدب و التاريخ ، في كلية آداب معهد الفلسفة بموسكو ،وآنذاك نشبت الحرب الكبيرة الثانية ، فتم استدعاء سولجينتسين إلى خدمة العلم : أغسطس 1943م منح وسام الحرب الوطنية من الطبقة الثانية ، فبراير 1945م قُبض على النقيب ألكسندر إيسايفتش سولجينتسين ،على خلفية رسائل تبادلها مع أحد زملائه ،انتقد خلالها ستالين و القيادة السوفييتية : أحدهم – و ربما صديقه نفسه – "وشي به "لدى الحزب ، فثقافة الوشاية تنتعش بشدّة في زمن الاستبداد ؛ وهكذا حُكم على الرجل – استنادا للمادة 58 – بثماني سنوات سجن ، ونُفيَ إلى سيبيريا،ثم إلى ضواحي موسكو ثم إلى كازاخستان ، وفي كل هذه المحطات كان مجبرا على العمل الشاق ، و في سجنه أصيب – وقاكم الله – بسرطان المعدة، وأجريت له عملية جراحية، ونجح في الانتصار على هذا القاتل الرهيب ، وعلى ضوء تجربته المريرة هذه ، كتب فيما بعد روايته " جناح السرطان " التي تداولها المثقفون الروس – بشغف – فيما بينهم، و بذات طريقة تداول المناشير السرية!!.

عقب تحرره من أسر ناسه ، عمل الكاتب كمدرس رياضيات ، وزاد من وتيرة إنتاجه الأدبي النضالي ضد الشمولية الشيوعية، و شهدت هذه الفترة ظهور روايته " يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش " التي تحكي قصة كفاح نجار سوفييتي بسيط،للبقاء حيا في معسكر اعتقال شيوعي ؛ وقد قرأ الزعيم خروتشوف الرواية و أشاد بها،وسمح بنشرها،ونشرت كذلك باقي أعمال سولجينتسين ، ما أحدث ثورة في الأوساط الفكرية و الأدبية السوفيتية،ثم كتب رائعته الشهيرة " أرخبيل جولاج " التي صوّرت القمع و التنكيل إبان فترة توّحش الشيوعية؛ ولأن أيام الربيع – دائما – قلال، فسرعان ما منعت أعمال الكاتب مجددا؛ وطرد من اتحاد الكتاب السوفييت،و في المقابل منحه "الغرب" جائزة نوبل للآداب 1970م،لكنه رفض السفر لاستلامها خشية منعه من العودة لوطنه،ثم صعد إلى سدة القيصرية: بريجينيف،الشيوعي المحافظ، ومخبر (K.G.B) السابق،و الذي وصف رواية أرخبيل جولاج بأنها "عمل فظ معاد للسوفييت،ومن ثم فإن لدينا كل المسوغات الكافية لنضع سولجينتسين في السجن،لقد تجرّأ على تاريخنا السوفييتي؛ لقد تمادى كثيرا هذا العنصر المعربد المسمى سولجينتسين،ولم يعد يأبه بشيء"؛12 فبراير 1974م قبض على الكاتب بتهمة خيانة الوطن !! ؛ الليلة التالية بات – منفيا – في ألمانيا الغربية،بعد إسقاط جنسيته؛ وحين وصل إلى الغرب قُوبل باحتفاء كبير ،بهدف استغلاله – دعائيا – ضد الشيوعية،لكنه فضل الصبر ،ريثما تنجلي أمامه حقيقة ديمقراطية مضيفيه،ولم يلبث و أن أعلن أن النظام الغربي ما هو سوى وجه ثانٍ برّاق للعملة ذاتها،و إنه لا يمثل ما كان يتخيله من حرية ، ولا هو الجنة الموعودة التي يجري التسويق لها إعلاميا، وهنا تم تجاهله من قبل إعلام الغرب،و انزوى الرجل مع قلمه و أوراقه متفرغا للشأن الأدبي.

عندما اهترأت اليد الحديدية في بلاد السوفييت،وانفرط عقدها،رُفع الحظر عن كتابات سولجينتسين، وأعيدت له جنسيته،وتمت دعوته للعودة إلى الوطن،فعاد – 1994م – ممتطيا قطارا " لكي أرى بلادي عن كثب "،وقد هاله ما شاهده من بؤس و انهيار ،فصرح عقب عودته : " إن عملية إنقاذ الدولة المنهارة في عهد غورباتشوف، لم تتضمن سوى إسقاط لمفهوم الدولة نفسها" ؛وفي سنة1998م منحه السكير يلتسين أرفع وسام روسي،لكن الكاتب – باعتباره ليس برسم البيع – رفض استلامه،قائلا إنه لا يقبل وساما من سلطة قادت روسيا إلى الخراب.

مات سولجينتسين منذ شهرين،و رثاه – بحرقة – قراؤه ومريدوه ، و رثاه – أيضا – و باحترام – مخالفوه،مات في الصيف كما تمنى،ومات في بيته كما تمنى،والأهم : مات محترما،كما ينبغي لأي قلم أن يكون.

المعلومات مستقاة من جريدة أخبار الأدب، ع787.

نواقيس

علي الطويل

عودة إلى مشاريع التخرج

تحدثت في العدد التاسع من هذه الصحيفة عن مشاريع التخرج التي يقوم بإعدادها طلاب المراحل النهائية في الكليات الجامعية. وتطرقت إلى بعض النقاط المهمة التي تلامس هذا الموضوع كالجهد الواضح الذي يبذله الطالب الذي يقف على عتبة التخرج في إعداد هذا البحث العلمي، وما يتطلبه من وقت حتى يصل إلى مرحلته النهائية ويجاز من قبل لجنة المناقشة.وقد طالبت في نهاية مقالتي تلك بضرورة الاستفادة من هذه المشاريع وذلك بتوظيفها لخدمة أغراض المجتمع المتعددة بعد نفض الغبار عليها وإخراجها من أرشيف وأضابير الأقسام العلمية.

إلاّ أنّ المتتبع للشأن الجامعي يجد أنّ هذه المشاريع لم تفعّل بعد بالرغم من أنها تعامل معاملة المقررات الدراسية الأخرى من حيث احتساب الدرجات وعدد الوحدات والساعات الدراسية ومتابعتها من قبل الأساتذة المشرفين.. ومازال الطالب حتى هذه اللحظة مثقلاً بأعباء مشروع التخرج ومتطلباته بدءا من اختيار الموضوع إلى الشروع في تجميع المادة العلمية بعد رحلة طويلة في بطون الكتب والمراجع إلى إعداد الإحصائيات والاستبيانات المختلفة التي تتطلبها طبيعة البحث، ناهيك عن الجولات المكوكية التي يقطعها الطالب حتى ينجز مشروعه طبقاً للمواصفات العلمية المطلوبة.

ولا نغالي إذا قلنا أن الطالب قبيل مناقشة المشروع ينتابه بعض القلق والتوتر النفسي وتزدحم مكاتب الطباعة بمئات الطلاب الذين يحرصون على إتمام ما طُلب منهم من إضافة أو تصويب أو تعديل في هذه المشاريع. ونلاحظ في الوقت نفسه عدم ارتياحهم لكثرة ما تتطلبه هذه المشاريع من جهد ووقت ومال أيضاً، وبمجرد أن تتم مناقشتها وتجاز تركن في زوايا النسيان ولا يلتفت إليها اللهم في حالة إقامة المعارض الطلابية حيث يتم عرض بعضها إبرازاً لعمل الطلاب.

إننا في هذا المقام نجدد الدعوة إلى الأقسام العلمية واللجان الشعبية بالكليات وإلى الشؤون العلمية بالجامعة لتبنّى هذه المشاريع التي تمثّل بلا شك إرثاً علمياً يجب الالتفات إليه وتوظيفه كما سبقت الإشارة لخدمة الأغراض المتعددة في المجتمع لا سيما وأن معظم هذه البحوث تتميز بالموضوعية العلمية والرصانة وأجيزت من قبل أساتذة أكاديميين متخصصين حتى تعم الفائدة، وتتحقق الأهداف السامية من وراء إقرار هذه المشاريع أصلاً كمقررات دراسية يجُبر الطلاب على اجتيازها قبل منحهم الإجازة الجامعية.

فهل بعد هذا النداء تكون هناك التفاته جادة من أصحاب الشأن إلى هذا الموضوع، أم ستستمر هذه المشاريع الطلابية على حالتها السابقة مجرد حبر على ورق ؟!